المحاضرة الثانية

الوحدة رقم2: الصراع البيزنطي الوندالي وحدود السيطرة

1. **الحملة البيزنطية على بلاد المغرب**
2. **الصراع البيزنطي الوندالي في بلاد المغرب**

المواجهة الأولى : معركة أد ديكيوم (Ad Dicium)

المواجهة الثانية : معركة تريكا ماروم(Tricamarum)

3. **موقف الممالك المورية من الصراع البيزنطي الوندالي**
4. **العوامل التي ساعدت فى نجاح الحملة البيزنطية على بلاد المغرب**
5. **حدود السيطرة البيزنطية في بلاد المغرب**
6. **العوامل التي ساعدت على تجسيد الاحتلال البيزنطي في بلاد المغرب**

1- الحملة البيزنطية على بلاد المغرب

تعددت أراء المؤرخين واختلفت حول تعداد الجيش البيزنطي، الذي استطاع في فترة قصيرة القضاء على الوندال في المغرب القديم يذكر بروكوب فيقول :« جهز –جوستينيان- جيشا مكونا من عشرة آلاف رجل وخمسة آلاف فارس وكان الأسطول مكونا من خمس مائة مركب للنقل وأكثر من اثنين وتسعين مركبا طويلا ذا صفَ من المجاديف مجهزة للحرب وكلف لإدارة الحملة وتسيير القائد بليزاريوس القائد الأعلى لجيوش الشرق ».

كما كان الجيش البيزنطي يضم أربع مائة جنديا هيروليا(Hérules)، وحسب المصادر فإن الجيش ضم ستة مائة من الخيالة رماة السهام من الهون (Huns)، وكان في الجيش أيضا قرابة ألفين من الفرسان المدرعين وهم حراس القائد بليزاريوس قائد الحملة (Magister Militum Perorientem) ومساعده القائد صولومون (Solomone)، كما صحب القائد بليزار زوجته معه أنطونيا (Antonia) والتي كثيرا ما كانت ترافقه في الحملات التي يقوم بها .

أبحر القائد بليزاريوس من بيزنطا باتجاه قرطاج و لم يلق أي صعوبة في البحر، دون أن يتعرض إلى هجوم بحري من طرف الوندال، وهو عكس ما كان يتوقعه ، حيث رست الجيوش البيزنطية على سواحل قرطاج ورست السفن البيزنطية بالتحديد في موقع رأس كبوديا (Caput Vada) في سبتمبر من عام 533م دون أي مقاومة من الوندال كما كان منتظرا، وكانت هذه

المنطقة تبعد عن قرطاج مسافة 200 كلم ، وهي حسب تقدير بروكوب تبعد عن قرطاج مسيرة خمس أيام سيرا عاديا .

وأول شيء قام به القائد بليزار قبل النزول على الساحل هو الاستماع مطولا لأراء القادة العسكريين الذين اصطحبهم معه بما فيهم القائد أرخيلايوس، كما أبدى رأيه في طريقة الحرب والإستراتيجية التي يجب اتَباعها في الحرب ضد الوندال، وهي الخطة التي وجدت ترحيبا في نفوس القادة والجنود .

بعد نزول قواته على اليابسة بالقرب من العاصمة قرطاج خطب على السكان المحليين قائلا ومطمئنا " إنه وجنوده جاءوا محرَرين لا مستعمرين، وإن الإمبراطور لم يحمل السلاح إلا لينقذ البلاد والسكان من بطش الوندال"، وأمر جنوده بمنع السلب و النهب، الأمر الذي أراح نفوس السكان خاصة رجال الدين الذين سارعوا إلى تقديم المساعدة، يقول بروكوب عن ذلك: « كان بليزار قد جد في استرضاء الأفارقة بليونته واستقامته وأمر مختلف الجنود والقادة بعدم التعرض أو نهب أراضي الليبيين بهدف استمالتهم إلى صفهم ضد الوندال، حتى إنه طول الطريق كان يسير في أرض الأصدقاء فلم يكن السكان يفرون عند اقتراب الجيوش البيزنطية ولم يخفوا ما يملكونه بل كانوا يقدمون الطعام ويزودون الجنود بكل ما يحتاجون إليه »

من خلال ما ذكر بروكوب يظهر أن القبائل المورية لم تتعرض للجيوش البيزنطية خلال انتقالها من الساحل باتجاه العاصمة قرطاج، ما يدل على العلاقات السلمية والتحالف الذي ربط الطرفين قبل الحملة بل وقامت بتقديم يد المساعدة للبيزنطيين، وهو ما يدل ويؤكد العلاقات العدائية للقبائل المورية ضد الوندال ويبين الأوضاع المزية للمجتمع المغاربي القديم في الفترة الوندالية وللدور الكبير الذي لعبته القبائل المورية إلى جانب البيزنطيين في القضاء على الوندال.

2- الصراع البيزنطي الوندالي في بلاد المغرب :

يذكر بروكوب في مؤلفه الحروب ضد الوندال أن القائد بليزاريوس كان متخوفا كثيرا من الحملة التي سيقودها على بلاد المغرب ضد الوندال، حيث وضع احتمالات كثيرة في إمكانية الحرب مع الوندال في البحر قبل النزول إلى البر، وهو ما يظهر في كثرة الاستفسارات والتجسس على الوندال والجيوش التي كانت بحوزة الملك الوندالي جلمير قبل انطلاق الحملة .

وقد نزلت الجيوش البيزنطية في البداية بجزيرة مالطة، ولم يلبث بليزار كثيرا وأمر بالإبحار إلى قرطاج، حيث نزلت الجيوش البيزنطية بالقرب من كاب فادا (Caput Vada) (رأس كبوديا حاليا) وهي منطقة تقع بين منطقة السوس وصيفاقص، وعسكر وجنوده واخذ قسطا من الراحة فيها وبدأ يحضَر للحملة وللحرب ضد الوندال، وأمر جنوده بعدم التعرض للسكان أو

معاملتهم بقسوة ودفع كل مستحقات الغذاء ومحاولة كسبهم إلى صف البيزنطيين، و إقناعهم أنهم أتوا إلى المغرب مخلصين لهم من بطش الوندال لا محتلين للمنطقة .

هذا وقد عرف الصراع الوندالي البيزنطي مرحليتين ومواجهتين مختلفتين من الصراع، يمكن إيجازهما فيما يلي:

❖ **المواجهة الأولى : معركة أد ديكيوم (Ad Dicium)**

بعد التحضير العسكري الذي قام به القائد البيزنطي بليزار ودراسة الخطط العسكرية مع مساعديه، اختار ثلاث مائة رجل من أحسن الجنود يسيرون في الصفوف الأولى، وهم بمثابة فاتحي الطريق أمام تقدم الجيوش البيزنطية باتجاه قرطاج، وهم من يتحمل مسؤولية تأمين الطريق واقتفاء الأخبار قبل وصول الخطر الذي قد يكون من طرف الوندال أو القبائل المورية ، حيث سارت الجيوش البيزنطية باتجاه قرطاج مسيرة 15 كلم يوميا برا متخذة كل الحيطة والحذر من الهجمات الوندالية المرتقبة .

ومع وصول خبر الحملة البيزنطية على بلاد المغرب انسحب القائد الوندالي جلمير باتجاه الجنوب إلى البيزاكينا وترك العاصمة قرطاج تحت قيادة أخيه أماتاس، واستقر في مكان يبعد عن الساحل وعن قرطاج مسيرة أربعة أيام .

وأمام تقدم الجيوش البيزنطية إلى قرطاج أرسل جلمير إلى أخيه أماتاس(Ammatas) بقرطاج وأمره بقتل الملك هلدريك وكل من له علاقة به من الأهل و الأقارب، وقد فعل أماتاس ما أمره به جيلمير وقتل هلدريق وأقاربه وكل من له علاقة بهذا الأخير من الوندال أو المور ، كما أمره بالاستعداد وإعداد الجيش الوندالي الذي تحت سيطرته لمواجهة الزحف البيزنطي على العاصمة قرطاج، والقضاء على الجيش البيزنطي في موقعة أد-ديكيمون Ad-Dékimon (تبعد عن قرطاج 70 stade) .

وصلت الجيوش البيزنطية إلى ديكيمون بعد مسيرة ثلاثة أيام وقد التقت الجيوش البيزنطية بقيادة بليزار والجيوش الوندالية بقيادة جلمير في موقعة ديكيمون في سبتمبر 533م، وحسب بروكوب أن بليزار استطاع أن يقضي في هذه المعركة عما يزيد عن عشرون ألف وندالي ، وهو عدد حسب رأينا مبالغ فيه .

استطاعت الجيوش البيزنطية بقيادة بليزار بعد الانتصار الأول دخول العاصمة قرطاج واحتلالها وإخضاع سكانها، وشرع هذا الأخير في ترميم بعض الأسوار التي هدَمت، وبدأ في تحصين المدينة والاستعداد لأي هجوم قد يكون من طرف الوندال خارج أسوار المدينة كما جمع الجيش وأشاد ببسالته وقوته وحثه على ضرورة الاستعداد لأي خطر خارجي محتمل، وأطال في تذكير الجيش بالبطولات والأشياء النبيلة التي يقوم بها للوصول إلى أرقى مراتب العزَ والرَقي

الحضاري الروماني الموروث عن الأجداد، وذكَر بالأخطار التي قد تهدَد المدينة التي تم السيطرة عليها، كما حثَ على الحفاظ على الانتصار الأول ضد الوندال وضرورة تحقيق انتصارات أخرى للقضاء الكامل على الوندال في بلاد المغرب .

❖ **المواجهة الثانية : معركة تريكا ماروم(Tricamarum)**

تكلم بروكوب عن خروج القائد بليزاريوس من قرطاج رفقة عدد من الجنود والفرسان للمعركة الفاصلة والنهائية، حيث لم يترك سوى عدد قليل من الجنود لحماية العاصمة قرطاج التي قام بتحصينها وبناء أسوارها المحطمة وترميمها من أي هجوم محتمل من طرف الملك جلمير، الذي كان معسكرا في موقعة تريكاماروم(Tricamaron) وهي منطقة تبعد عن قرطاج قرابة مائة وأربعين ستاد (stades) .

كما قام جلمير بجمع النساء والأطفال بعيدا عن موقع المعركة، وجمع الجنود الوندال وبدأ يخاطبهم ويحمسهم ويذكرهم بسبب المقاومة والدفاع عن أمجاد أجدادهم وأملاكهم وأراضيهم المسلوبة من طرف القائد البيزنطي بليزار وجنوده ، و ذكرهم بما سيقوم به البيزنطيون بأولادهم ونسائهم في حالة عدم المقاومة وخسارة الحرب .

كما استدعى أخاه تزاتزون (Tzatzon) وأمره باستدعاء كل الوندال المنتشرين في جزر المتوسط لتقديم المساعدة للملك جلمير ، ووعدهم مقابل ذلك بأموال وأراض في حالة القضاء على البيزنطين، وذكَرهم بأن نجاح الحرب يعتمد على مدى المساعدات والمقاومة التي يقومون بها ضد البيزنطيين، ونحاج الحرب هو نجاح الوندال في الجزر التي يسيطرون عليها.

كما لجا إلى حلفائه من القبائل المورية التي كانت تجمعه معهم علاقات تحالف وحثهم على الدفاع والدخول معه في حروب ضد البيزنطيين مقابل مكاسب مالية ومادية في حالة الانتصار على العدو.

وبعد معركة كبيرة قام بها بليزاريوس وقادته استطاع هذا الأخير القضاء على جلمير وقواته في معركة تريكيماروم في ديسمبر533م ، الأمر الذي أدى بهذا الأخير إلى الانسحاب والفرار إلى قبائل حليفة في مقاطعة نوميديا في جبل بابوا (papoua) .

وتمكن بذلك بليزار من أسر الكثير من النساء والأطفال الوندال وكثير من الجنود وغنم الكثير من الأموال التي كانت بحوزة هؤلاء الوندال، فسقطت بذلك دولة الوندال التي عمَرت ما يزيد عن قرن في البحر المتوسط عموما وبلاد المغرب القديم خصوصا .

أمر بليزار بعد ذلك أحد قادته الأرمينيين باقتفاء أثر الملك جلمير والقضاء عليه، وقد أرسل معه قرابة مئتين جندي، وكلَفه بالقبض على جلمير حيَا أو ميَتا، وأرسل رسالة إلى القادة بقرطاج بحماية المدينة إلى حين العودة إليها، كما أعطى ضمانا لكل الوندال الذين سلموا أنفسهم بعدم قتلهم أو التنكيل بهم .

لم يفلح القائد الأرميني في القضاء على جلمير بسبب وفاته بمدة زمنية قليلة، وبقي جلمير لاجئا عند القبائل التي كانت حليفته ولم يستطع بليزار القبض عليه وانتهت مقاومة الوندال، وتم أسر جيوشه والكثير من الوندال رجالا ورنساءا وأطفالا ثم عاد بليزار إلى العاصمة قرطاج وبدأ يحضَر للعودة إلى بيزنطا بعد الاحتفال الكبير الذي أقيم لأجله بقرطاج عند عودته، وقد جمع الكثير من الأموال بما فيها كرسي العرش الذهبي وكثيرا من الأشياء الذهبية الثمينة، وترك من يخلفه في تسيير المغرب القديم وهو القائد العسكري صولومون (solomone) .

3- موقف الممالك المورية من الصراع البيزنطي الوندالي :

ما يمكن استنتاجه من مصدر بروكوب، أن القادة المور وقفوا إلى جانب البيزنطيين ضد الوندال وأعطوا الطاعة الظاهرية للإمبراطور البيزنطي جوستينيلن ولقائد الحملة بليزاريوس، لكن هذه الطاعة كانت تخطيطية أكثر منها واقعية، ذلك أن الخوف و القلق وحب التحرر وانتظار الفرصة من بين مخططات الفرد الموري، وما يؤكد ذلك تغير العلاقات بعد القضاء على الوندال وبعد نهاية مصلحة الطرفين في القضاء على العدو المشترك وهو الاحتلال الروماني .

فنجد أن أكبر الممالك المورية تحالفت مع البيزنطيين ضد الوندال، وهذا يعود إلى طبيعة العلاقات التي كانت بين الطرفين قبل الحملة البيزنطية إذ اتسمت بالعدائية بسبب السياسة الوندالية بعد موت جنسريق، حيث وجد الإمبراطور في هذه الممالك الدعم والسند الكبير في القضاء على الوندال، ومن هذه القبائل نذكر قبائل لواتة في طرابلس وقبائل الفراكسيس في البيزاكينا وقبائل الاوراس وقبائل الحضنة و قبائل ألتافا في الغرب.

هذا وتذكر المصادر أن الجيوش البيزنطية لقيت ترحيبا كبيرا من السكان، ووجدت السلطة البيزنطية ولاءا كبيرا من بعض القادة المور مقابل اعتراف الإمبراطور بسلطتهم على المناطق التابعة لهم وإهدائهم الصولجانات الفضية والذهبية والأحذية الموشاة بالذهب و الفضة والمال الكثير، وهذا الأمر مع بداية الحملة والتعاون للقضاء على الوندال .

و ربما يكون هذا الأمر عادة قديمة وطريقة من طرق تأكيد العلاقات بين الطرفين، فقد ذكر بروكوب نفس الأمر في العلاقات التي كانت تربط المور بالوندال حيث أشار إلى ما كان يتحصل عليه الملوك والأمراء الموريون في المغرب القديم في الفترة الوندالية، حيث كانت السلطة الوندالية تمنح للقادة المور شارات المُلك والاعتراف بالملك تتمثل في صولجان من الفضة مذهب، وتاج مزركش فضي، ومعطف وقميص أبيض وأحذية مطرزة بخيوط مذهبة وغيرها .

وهو الفعل نفسه الذي قام به القائد البيزنطي بليزاريوس مع القادة المور كما سبق الذكر، والهدف من ذلك هو استمالة المور وتأكيد العلاقات السلمية بين الطرفين، غير أن العلاقات لم تستمر على حالها بسبب الإستراتيجية التوسعية البيزنطية على حساب الممتلكات المورية .

و حسب بروكوب أن بعض القبائل المورية تحالفت مع الوندال ضد البيزنطيين ويظهر ذلك من خلال الخطة التي قام بها جلمير في معركة تريكاماروم، والتي اقتضت تقسيم الجيش إلى ثلاثة أجزاء، قسم تحت قيادة جلمير و جزء آخر تحت قيادة أخيه تزاتزون وقسم ثالث بقيادة قادة من المور.

و بقيت العلاقات سلمية بين الوندال وبعض القادة المور أساسها التعاون بين الطرفين أثناء وبعد الحملة البيزنطية على الوندال، حيث نجد انسحاب وفرار الملك الوندالي جلمير بعد انهزامه أمام بليزار إلى إقليم نوميديا وإلى بعض القبائل المورية التي استقبلته وساعدته بعد أن فشلت كل محاولاته في صد الحملة البيزنطية، وهي قبائل تستقر في جبل بابوا (papoua) وهذا بعد معركة تريكاماروم ، وهي قبائل كانت حليفة جلمير، الأمر الذي دفعه إلى الالتجاء إليها بعد الهزيمة، وهو ما يؤكد لنا العلاقات الوندالية مع بعض القبائل المورية .

4- العوامل التي ساعدت فى نجاح الحملة البيزنطية على بلاد المغرب :يعود الانتصار الساحق و السريع الذي حققه القائد بليزار ضد الوندال في بلاد المغرب لدهاء هذا الأخير في التخطيط وفطنته في قيادة الجيوش ، كما توفرت ظروف أخرى للنجاح الباهر الذي حققته الجيوش البيزنطية في حملتها على الوندال نذكر منها :
الأوضاع المزرية لمملكة الوندال في جميع الجوانب السياسية والاقتصادية خاصة الصراعات الدينية التي أدَت إلى انفجار المجتمع الوندالي بسبب الخسائر التي تكلف الخزينة الوندالية في اضطهاد رجال الدين و السكان المسيحيين .

كذلك كثرة وقوَة الثورات المورية ضد الوندال، أدَى إلى إضعاف الجيش الوندالي وتكبيد الخزينة والدولة خسائر مادية وبشرية كبيرة، وهو ما أدَى إلى صراعات وانقسامات سياسية وعسكرية زادت من تفكيك الروابط الوندالية .

توفَر الظروف لبيزنطا في بلاد المغرب، لكونها أرضا خصبة يمكن احتلالها بعد التحالفات التي تم إبرامها، وتهيئة نفوس السكان لقبول فكرة التحالف مع بيزنطا، وهو الدور الذي كلَف به رجال الدين في المنطقة قبل وبعد الحملة .

التحالفات البيزنطية المورية، وهو ما يظهر من خلال تنقل الجيش البيزنطي من موقع النزول إلى العاصمة قرطاج بمسافة 200 كلم دون التعرض لأي هجوم من القبائل المورية، وهو ما يعكس العلاقات السلمية والتحالف بين الطرفين .

الصراع الوندالي بين جلمير والقائد الموري انتلاس سهل عملية الاحتلال البيزنطي، للدور الذي لعبه هذا الأخير في إضعاف الجيش الوندالي، وبوصول الجيش البيزنطي لبلاد المغرب وجد القائد بليزار أن الوندال تقريبا بدون جيوش يمكن ذكرها، فقد تشتت و ضعف الجيش تماما بسبب كثرة الحروب مع القبائل المورية، ما يدل على ذلك أن الوندال لم يصمدوا طويلا أمام ضربات الجيش البيزنطي وتم القضاء عليهم بعد معركتين.

ومن العوامل المساعدة أيضا نذكر الظروف التي كانت تمر بها المملكة الوندالية، حيث إنها كانت تمر بفترة انهيار، فقد كانت في مواجهة ثورتين في جزيرة سردينيا، وفي مقاطعة طرابلس ضد المور و لم تكن الجيوش الوندالية تتعدى ثلاثين أو أربعين ألف جندي وهذا العدد لا يمكن التصدي به للحملة البيزنطية .

كذلك ضعف الملوك الوندال بعد جنسريق بسبب حياة الترف والبذخ والابتعاد عن تسيير شؤون المملكة التي بناها جنسريق، يذكر بروكوب في ذلك : « من بين جميع الأمم التي عرفتها أمة الوندال أكثرها تأثرا، فمن اليوم الذي استولوا فيه على إفريقيا اتخذوا عادة الاستحمام اليومي وزودوا موائدهم بكل ما هو بديع مما تهبه الأرض و البحر، وقد تزينوا بالحلي الذهبية وملابس الحرير وأقبلوا على متع المسرح وميدان سباق الخيل وغير ذلك من الملذات المماثلة وخصوصا منها الصيد، ومالوا إلى الراقصين أهل الإيماء و الموسيقى وكل ما يسر الأعين و الآذان، وقد سكن أكثرهم منازل بيعة- القصور- محاطة بالأشجار والمياه الجارية وكانوا يقضون أوقاتهم في مآدب كبيرة .... » .

من خلال ما ذكره بروكوب يظهر ميل الطبقة الحاكمة و الارستقراطية إلى حياة الترف و الابتعاد عن كل ما يخدم السلطة و الشعب الوندالي في المغرب، الأمر الذي أدَى إلى ضعف السلطة الحاكمة والجيش و عجَل من سقوط الوندال وساعد بيزنطا على القضاء على الوندال بكل سهولة .

5- حدود السيطرة البيزنطية في بلاد المغرب :

كان هدف الإمبراطور جوستينيان منذ البداية هو التفكير في احتلال كل المناطق التي كانت تسيطر عليها روما قبل سقوطها على يد الوندال سنة 539م، الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل عن المناطق التي كانت خاضعة للبيزنطيين في بلاد المغرب؟ عن مدى تجسيد الأهداف التي كان

يطمح إليها الإمبراطور جوستينيان، و يظهر ذلك في التقسيمات التي تضمنها قرار 534م الذي أرسل إلى القائد أرخيلايوس بعد بلوغه خبر نجاح الحملة و القضاء على الوندال لان الهدف هو السيطرة على كل مقاطعات بلاد المغرب، أم أن الحقيقة أنها كانت أهدافا على ورق ولم يصل إلى تجسيدها على أرض الواقع؟ الأمر الذي يطرح التساؤل عن المناطق وعن حدود السيطرة البيزنطية في بلاد المغرب القديم ؟

لمعرفة حدود السيطرة البيزنطية في بلاد المغرب القديم يجب تتبع الآثار المادية البيزنطية في المنطقة، وعدم الاكتفاء فقط بما ورد في المصادر الكلاسيكية وما احتوت عليه من كتابات وقرارات رسمية، لأنه وبالنظر إلى القرارين اللّذين أرسلهما الإمبراطور جوستينيان إلى المغرب بعد وصول خبر نجاح الحملة، نجد أن القرار الإداري شمل في تقسيمه لبلاد المغرب كل الأقاليم من السَرت شرقا إلى موريطانيا الطنجية غربا، الأمر الذي يوحي بالسيطرة البيزنطية الكاملة على بلاد المغرب، لكن هل كان ذلك الطموح حقيقيا تجسد على أمر الواقع، أم أنه حلم و تخطيط كان الإمبراطور يعمل على تحقيقه ؟

و تظهر الآثار البيزنطية في الخط الدفاعي البيزنطي من الشرق إلى الغرب، فنجد أن السيطرة البيزنطية في إقليم طرابلس اقتصرت على المدن الساحلية فقط، حيث ذكر بروكوب المدن الساحلية التي سيطر عليها البيزنطيون وهي مدينة أويا ، لبدة وصبراتة دون غيرها من المناطق، حيث عرفت قبائل طرابلس الاستقلال المبكر عن السيطرة الرومانية وكان ذلك سنة 259م ، وتخلى عنها الرومان بسبب كثرة الحروب والحملات التي كانت تقوم بها القبائل المورية بالمنطقة، خاصة قبائل لواتة التي ذكرتها المصادر ووصفتها بأكبر القبائل التي تسيطر على أكبر جزء في المقاطعة الطرابلسية منذ القرن الثالث للميلاد وطيلة الفترة الوندالية والبيزنطية، الأمر الذي يؤكد عدم التوسع البيزنطي في الداخل واقتصار السيطرة البيزنطية على المدن الساحلية الطرابلسية دون غيرها ، كما أننا نجهل حدود السيطرة البيزنطية في طرابلس لعدم وجود بقايا أثرية تدل على المناطق المسيطر علها.

ونجد الخط الدفاعي البيزنطي في البيزاكينا من خلال العديد من القلاع المهمة التي شكّلت ثلاث خطوط دفاعية إستراتيجية، حيث نجد مجموعة من القلاع على الشريط الساحلي بين قابس و قرطاج وأغلب مدنها محاطة بأسوار، كما نجد طريقا ثان بين قرطاج وتبسة تظهر فيه مجموعة من القلاع مثل: قلعة حيدرة وهنشير وعين تونقة ونجد الخط الدفاعي الثالث بقلعة سبيبة وممس وجلولا .

أما المنشآت الدفاعية البيزنطية في مقاطعة نوميديا، فقد بدأت بقلعة تبسة التي تحاذي الجزء الشمالي الشرقي لجبال الاوراس، وهي محل نقاش بين المؤرخين في كون السيطرة البيزنطية وصلت إلى حدود جنوب الأوراس أم اقتصرت على المناطق الشمالية السابقة الذكر فقط .

فقد طرأ تضارب كبير بين المؤرخين في المناطق التي أخضعها البيزنطيون في نوميديا والأوراس، في كون الاحتلال والسيطرة شملت كامل أراضي نوميديا بما فيها الاوراس؟ أم تم احتلال شمال الأوراس فقط دون جنوبه؟ وهو الرأي الذي يذهب إليه ديل(Diehl) في كون الجيوش البيزنطية لم تتوغل إلى داخل الأوراس واقتصرت السيطرة البيزنطية على الشمال فقط .

ونفس الرأي يذهب إليه ستيفان قسال(Stéphan Gsell) في الاعتقاد بسيطرة البيزنطيين على شمال الاوراس دون الجنوب، ويذكر في ذلك أنه من الممكن توغل القائد صولومون في الجنوب وبناء مجموعة من المنشآت العسكرية في بداية الاحتلال، إلاَ أنَ الاحتلال والسيطرة لم يدوما طويلا وقام البيزنطيون بالانسحاب نحو الشمال ، ربما بسبب الحروب الكثيرة من طرف القبائل الأوراسية وصعوبة تضاريس المنطقة.

فقد تم تشييد عدد كبير من المراكز العسكرية للتَصدي للقبائل المورية، أهمها حصن قصر الكلب، و ماسكولا، والزاب، وتمقاد، ولومبيز ووصلت إلى سيرتا وقالمة، حيث لا يمكن التأكَد من هذه الحدود إلا في فترة حكم صولومون حيث اتسعت السيطرة البيزنطية كثيرا ووصلت حتى غرب الزاب وربما وصلت حتى غرب منطقة المسيلة حاليا .

الظاهر أن حدود السيطرة البيزنطية في الاوراس تراجعت بعد موت صولومون، الأمر الذي يوحي بالسيطرة البيزنطية على شمال الاوراس دون الاوراس كلها والشيء نفسه يذهب إليه جون لاسي (J.Lassus) في عدم إمكانية امتداد خط الليمس البيزنطي إلى جنوب الاوراس، وأن الحدود اقتصرت على المناطق الشمالية فقط دون غيرها من المناطق الداخلية والجنوبية .

وهناك من تبنى رأيا آخر يدعم فكرة الامتداد البيزنطي جنوب الاوراس منهم ديزونج (J.Desanges) الذي يؤكد الفكرة من خلال المنشآت العسكرية البيزنطية في الأوراس والمنتشرة جنوب الاوراس لتأمين الطريق الرابط بين قفصة(Capsa) و طبنة(Tubunae) مرورا ببادس(Badias) ، والشيئ نفسه يذهب إليه برينقل(Pringle) وذلك لوجود بعض أثار المنشأت الدفاعية البيزنطية التي تحتوي على جيوش مستقرة في الحدود، وهي الجيوش المستقرة جنوب الاوراس التي كانت تؤمن المنطقة من الهجمات المورية ، والشيء نفسه يدعمه تروسي (P.Trousset) في إمكانية الاحتلال البيزنطي للاوراس في القسم الجنوبي .

أما السيطرة البيزنطية في موريطانيا السطايفية فإن الآثار تبرز الاحتلال البيزنطي الذي وصل إلى غاية سيتيفيس، حيث بدأت السيطرة مع تحصينات مدينة زابي جوستينيانا (Justiniana Zabi) ، وهي مدينة تمتد من المسيلة حاليا إلى الغرب إلى غاية باغاي (Bagai) إلى الشرق،

وهي مناطق تابعة ربما إلى الحدود البيزنطية وتقع في الجنوب الغربي من المقاطعة السطايفية ، حيث تراقب مدينة زابي الطريق الرابط بين شط الحضنة وجبل بوطالب و هي تابعة إداريا لمقاطعة نوميديا وتمتد إلى غاية واد بوسلام الذي يدخل تحت حكم المركز العسكري بسطيف، وكان الهدف منها هو مراقبة الطريق الرابط بين شط الحضنة وجبل بوطالب، كما نجد آثارا بيزنطية في كل من ميلة وجميلة، وربما وصل صولومون إلى إقليم الزاب وقام ببناء قلعة بها سنة 540م سمَاها زابي جوستينيانة وهو اسم مأخوذ من اسم الإمبراطور جوستينيان ، والبقايا الأثرية الكثيرة للمنشآت العسكرية في المسيلة دليل على السيطرة البيزنطية على المنطقة، ولا نعتقد الامتداد أكثر إلى الغرب من الحضنة لانعدام الآثار البيزنطية التي تشهد على ذلك ، أما المناطق الساحلية فربما توقف الاحتلال في روسيكادا لوجود آثار موانئ بيزنطية في المنطقة ووجود حامية عسكرية بيزنطية .

أما السيطرة البيزنطية في موريطانيا القيصرية فإن المراكز الدفاعية اقتصرت على الموانئ الساحلية في كل من تيبازة و الجزائر وتنس و قيصارية و ذكر بروكوب هذه الأخيرة كعاصمة تقليدية قديمة لمقاطعة موريطانيا القيصرية .

و اقتصرت السيطرة البيزنطية في موريطانيا الطنجية على مدينة أو قلعة سبتة(septem) دون غيرها والهدف منها استراتيجي وتجاري ، حيث كانت هذه المدينة تابعة إداريا إلى مقاطعة قيصارية في عهد الإمبراطور جوستينيان وكانت تحتوي على ميناء ضخم يتم من خلاله الاتصال التجاري بمقاطعة اسبانيا، وربما أصبحت مدينة سبتة فيما بعد عاصمة موريطانيا القيصرية .

ذلك ربما أقصى ما وصلت إليه السيطرة البيزنطية في عهد الإمبراطور جوستنيان وقائده صولومون لأنها ستتقلص تدريجيا بعد ذلك بسبب كثرة الثورات المورية على المدن و المراكز البيزنطية وفي فترة خلفاء جوستينيان ، حيث إن السيطرة البيزنطية في بلاد المغرب اقتصرت على تونس حاليا وأجزاء من نوميديا وصولا إلى موريطانيا السطايفية و المدن الساحلية مثل قيصارية ومدينة سبتة، أما الأراضي الأخرى فقد استرجعتها القبائل المورية وسيطرت عليها .

ما يمكن استنتاجه في هذا الجانب أن الاحتلال البيزنطي كان محدودا وجزئيا مع بداية الاحتلال وبعد القضاء على الوندال، إذ شمل في البداية الإقليم الساحلي من طرابلس وأجزاء من البيزاكينا و البروقنصلية وبعض المدن الساحلية من نوميديا وموريطانيا و الموانئ المهمة على طول الشريط الساحلي، مثل ميناء مدينة سبتة، و ماعدا ذلك فإن الاحتلال البيزنطي لم يتوغل في الداخل وكانت المناطق الأخرى تحت سلطة قادة المور، وبهذا فقد فشلت السياسة البيزنطية في

التوسع نحو الداخل لا سيما في المناطق الداخلية لموريطانيا القيصرية والطنجية حيث أن سهولة القضاء على الوندال لا تعني سهولة التوسع والتوغل إلى الداخل و إخضاع القبائل المورية، حيث وجدت السلطة البيزنطية مقاومة عنيفة من طرف السكان المحليين أفشلت المخططات التوسعية البيزنطية في الداخل بعد كشف نوايا الاحتلال البيزنطي الذي كان يذكر ويقر أنه أتى لبلاد المغرب كمحرَر للسكان من التعسف الوندالي وليس كمستعمر، ولكن ما حصل كان عكس ذلك إذ باشر القادة البيزنطيون سياستهم التوسعية ومصادرة الأراضي، الأمر الذي لم تتقبله القبائل المورية، حيث بدأت سلسلة صراعات لم تتوقف طيلة الاحتلال البيزنطي والى غاية سقوطهم على يد المسلمين أواخر النصف الأول من القرن السابع للميلاد .

6- العوامل التي ساعدت على تجسيد الاحتلال البيزنطي في بلاد المغرب:

لقي كل الغزاة الذين اجتاحوا بلاد المغرب القديم نفس العوائق في تجسيد الاحتلال الأمن والاستقرار، ذلك أن كل الفترات القديمة عرفت مجموعة من الثورات والتمردات من السكان الأصليين، فما أن تخمد ثورة حتى تظهر أخرى أكبر من سابقتها وأعنف .

و يعود ذلك إلى طبيعة الفرد المغاربي القديم الذي لا يقبل الاحتلال، وإلى الطابع الجغرافي الصعب الذي تتميز به منطقة المغرب، وهو الطابع الجبلي وصعوبة التضاريس والمناخ، وقد عملت السلطة البيزنطية منذ البداية على محاولة بسط نفوذها على المواقع الطبيعية الإستراتيجية وعلى المناطق الحساسة التي يمكن أن تسبب الإزعاج، إذ لم تستطع الإدارة البيزنطية بسط نفوذها عليها وإخضاع سكانها إلى سلطانها، فقد ساعد العامل الجغرافي السكان المحليين على الصمود طويلا في وجه الغزاة حسب كل فترة، فقد تعرض القائد البيزنطي صولومون في حملته على الأوراس إلى مقاومة عنيفة من السكان في تلك الفترة حيث استطاعت القبائل المورية في كثير من الحالات التغلب عليه و أوشكت في كثير من الحالات على القضاء على حملته.

وما يظهر في سياسة صولومون العسكرية أنه ومنذ البداية اعتمد على ما توفره الطبيعة من حواجز طبيعية تتشكل من سلاسل جبلية أو مجاري مائية أو شطوط، حيث أقام على حافة أو على رؤوس هذه الحواجز منشآت عسكرية بهدف صد الحملات المورية على المواقع التي سيطر عليها البيزنطيون في المنطقة ، ونهج في ذلك الأسلوب الروماني القديم، حيث استعمل الرومان في القرن الثالث ميلادي الحواجز الطبيعية لإقامة خط الليمس وذلك ما وجد في شط الجريد ، شط الغرسة و شط الحضنة و كانت هذه المواقع تمثل الحد الفاصل بين الممتلكات الرومانية وما هو خارج عن سلطانها وسيطرتها.

ومما ساعد الإمبراطور جوستنيان على ترسيخ الاحتلال البيزنطي في المنطقة هو قدرته على التحكم في المحيط الطبيعي، حيث كانت فكرة خطوط الليمس منذ الفترة الرومانية وبعدها الفترة

البيزنطية عاملا من عوامل الاستغلال الاقتصادي في المنطقة حيث يضم خط الليمس المواقع المهمة اقتصاديا وإستراتيجيا، وما عدا ذلك فيكون جنوب هذا الخط، وتظهر هذه السياسة من خلال اتخاذ كل من البروقنصلية وبيزاكينا والطرابلسية ونوميديا وبعض مواقع موريطانيا كمواقع نفوذ بيزنطية ذلك للدور الجغرافي الذي يميزها سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الأمنية.

وقد بادرت الإدارة البيزنطية منذ البداية إلى بسط نفوذها على المواقع الجبلية والمناطق السهلية لتحقيق هدفين: هدف اقتصادي وهدف عسكري أمني، حيث إننا نجد أغلب الثورات التي كانت ضد السلطة البيزنطية في بلاد المغرب كانت شرارتها الأولى من الجبال لذا كان القادة البيزنطيون يدركون أنه لا يمكن تحقيق الاستقرار ما لم يتم إخضاع المناطق الجبلية إلى سلطانها، هذا وإننا نجد في كل مرة أمراء المور يلجؤون إلى مرتفعات الأوراس أو إلى جبال موريطانيا القيصرية كجبال جرجرة وجبال الونشريس كمراكز يحتمون بها في الظروف الصعبة من الحروب .

و ما يؤكد اعتماد السلطة البيزنطية على العامل الجغرافي في السيطرة على المنطقة ما ذكره سليم دريسي نقلا عن تروسي (Trousset) في أن خطوط الليمس في القرن الثالث ميلادي أخذت بعين الاعتبار المعطيات الجغرافية في وضع المراكز العسكرية للمراقبة، الأمر الذي دفع بالسلطة البيزنطية إلى اتخاذ نفس المواقع العسكرية الرومانية كمقرات دفاعية وهو تأثير روماني قديم في الإستراتيجية العسكرية البيزنطية.

هذا وقد عمل القائد صولومون منذ البداية على السيطرة على المواقع الإستراتيجية حتى يتمكن من إرساء الأمن و الاستقرار، وقصد التحكم في الأوراس ليوفر الأمن والاستقرار لكل من مقاطعة نوميديا وبيزاكينا ، وقد ذكر بروكوب في هذا الصدد أن الإمبراطور جوستينيان قد بنى مجموعة من المنشآت الدفاعية في مقاطعة بيزاكينا خاصة الحصون بغية السيطرة على المنطقة ولصد الهجمات المورية، كما نجد مدنا إستراتيجية هامة محاطة بأسوار سيطر عليها البيزنطيون في كل من ماماسMamas (حليا مدينة هنشير بتونس)، تليبت (Télepte) و كيلول (Culule) .

لقد كانت السياسة البيزنطية منذ البداية مبنية على فكرة استغلال واستنزاف ثروات بلاد المغرب وما تتوفر عليه من ثراء اقتصادي بهدف سدَ ثغرة المتطلبات المادية للجنود البيزطيين ولسكانها في المنطقة، حيث كان كبار المسؤولين والتجار والحرفيين البيزنطيين متمركزين في المدن وكانت مهمتهم تقتصر على التسيير الإداري والتجاري، في حين نجد فئة أخرى من البيزنطيين تتمركز في الأرياف وتسيطر على أخصب الأراضي ومهمَتها بالدرجة الأولى اقتصادية زراعية من شأنها ضمان مداخيل خزينة الدولة.

وحتى لا ينهار النظام الاقتصادي البيزنطي في بلاد المغرب أولت السلطة البيزنطية عناية كبيرة بمسئوليها و كبار ملاّك الأراضي في المنطقة، يظهر ذلك من خلال توفير الأمن والاستقرار لهم حتى يتمكنوا من أداء مهامهم على أكمل وجه، حيث أصدرت مجموعة من القوانين تثبَت بها المعمرين في بلدهم الأصلي الذي ولدوا فيه، قصد ربطهم بالأرض وخدمتها، كما عملت على وضع منشآت عسكرية في المناطق الآهلة بالسكان سواء في المدن أو في الأرياف والهدف منها أمني اقتصادي بالدرجة الأولى .

ذكر بروكوب أن الإمبراطور جوستينيان بنى مجموعة من القلاع و الحصون في المناطق الحدودية لمقاطعة البيزاكينا حتى لا يتمكن المور من إتلاف المحاصيل الزراعية، وهو ما يدلَ على الاهتمام البيزنطي باقتصاد المغرب القديم ويظهر الدَور الذي تلعبه المنطقة في تزويد بيزنطة بالمنتجات الفلاحية خاصة الحبوب.

ولتغطية نفقات الحروب الكثيرة التي كانت تقوم بها الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور جوستنيان، عمل هذا الأخير على إثقال كاهل سكان المغرب بالضرائب كمورد مالي يسدَ ثغرة العجز المالي ، وفي حقيقة الأمر أن الأعمال الفلاحية التي قام بها الرومان في القرنين الثاني والثالث ميلادي أثناء احتلالهم للمنطقة جنى ثمارها البيزنطيون، خاصة ما تعلق بالزراعة الشجرية ونقصد بذلك الزيتون (الزيت) و الكروم (الخمر) .

فالحالة الاقتصادية البيزنطية في بلاد المغرب مرهونة بضمان الأمن والاستقرار في المدن والأرياف، لذلك عملت السلطة البيزنطية على إرساء قواعد عسكرية في المدن وفي الأرياف لتؤدي المدن دورها وتسمح هذه القواعد العسكرية بحراسة السهول الواسعة والخصبة، وهذا ما نجده في مدينة تبسة الغنية بمواردها الفلاحية أو مدينة تيمقاد التي هي الأخرى ذات أهمية فلاحية بالغة.

ما يؤكد النوايا البيزنطية في اقتصاد بلاد المغرب هو التمركز الكبير في الأقاليم الشرقية بسبب ما تحويه هذه الأقاليم من ثروة فلاحية ضخمة لمناخ ملائم للحياة الزراعية، بدليل تساقط الأمطار بكميات كبيرة في الجزء الشمالي الشرقي أكثر من الجزء الغربي.

من أجل ذلك عمل البيزنطيون على استغلال الموارد المائية لضمان الثروة الزراعية بإقامة منشآت الري سواء من ناحية التخزين أو النقل و التوزيع، ولإنجاح السياسة البيزنطية الاقتصادية في المنطقة كان على البيزنطيين الاعتماد على شبكة الطرق التي من شأنها تسهيل عملية التنقل والاستغلال، والملاحظ أنهم قد اعتمدوا على الطرق الرومانية القديمة في المنطقة التي بقيت صالحة في الفترة البيزنطية، وبفضل هذه الطرق يتم نقل البضائع وتصديرها إلى كافة

الأقاليم البيزنطية و كانت هذه الطرق بمثابة خطوط دفاعية بيزنطية ذلك لما تحتوي عليه من قواعد عسكرية على حوافها لضمان الاستقرار والأمن، وما يؤكد بقاء الطرق الرومانية نفسها في الفترة البيزنطية هو أن المصادر الكلاسيكية لم تذكر أن الإمبراطور جوستنيان اتخذ تدابير في هذا المجال، وما نجده في كون الإمبراطور جوستنيان قد أعطى إعانات مالية بهدف صيانة الطرق ربما يكون ذلك يخص الأقاليم الشرقية وليس كامل أقاليم المغرب .

يمكن القول أن الحملة البيزنطية على بلاد المغرب اقترنت بالأوضاع التي كانت تعيشها مملكة الوندال وظروفها السياسية والعسكرية الصعبة وحروبها الكثيرة مع القبائل المورية، كلَها أسباب حفزت بيزنطا عموما والإمبراطور جوستينيان خصوصا على التفكير في حملة على بلاد المغرب كان الهدف منها اقتصاديا بشكل كبير لما تزخر به المغرب من إمكانيات وثروات كبيرة، إضافة إلى الدافع الديني الذي حفَز الإمبراطور الذي كان يعتبر نفسه حامي المسيحية ورجال الدين في كامل أرجاء العالم، وذلك بسعيه لتخليص رجال الدين المسيحيين في المغرب القديم من بطش الأريوسية الوندالية .

كما أن الانتصار البيزنطي السريع على الوندال يوحي بأشياء كثيرة أهمها: قوة الجيوش البيزنطية من خلال الحروب الكثيرة التي خاضتها في الشرق ضد الفرس، وللدور الكبير الذي لعبته القبائل المورية في إضعاف الجيش الوندالي من خلال الحروب المتكررة، الأمر الذي سهَل المهمة على الجيش البيزنطي في القضاء على الوندال بهذه السهولة، كذلك يرجع هذا الانتصار إلى التحالف الموري-البيزنطي ضد الوندال بسبب العلاقات العدائية التي ميزت الطرفين الوندالي و الموري بعد وفاة الملك جنسريق .

كما إن أهداف الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب القديم تظهر من خلال القرارات التي بعث بها الإمبراطور جوستينيان إلى الحكام الإداريين والعسكريين في كيفية التحكم في المنطقة وتقسيمها إداريا وعسكريا، حيث أراد بذلك الوصول في السيطرة إلى الحدود التي كانت تسيطر عليها روما قديما، لكن هذه الأهداف لم تتجسد على أرض الواقع فقد بقيت أهداف على ورق، لأن السيطرة البيزنطية لم تصل في هيمنتها الحدود الرومانية القديمة، واقتصرت على الساحل الشمالي لطرابلس وأجزاء من البروقنصلية والبيزاكينا وبعض المناطق الداخلية في نوميديا والجزء الشرقي لموريطانيا السطايفية وبعض المدن الساحلية مثل قيصارية وسبتة، أما المناطق الأخرى من الموريطانيات فقد استرجعتها القبائل المورية وهو ما تؤكده الشواهد الكلاسيكية والأثرية .

غير أن الإمبراطورية البيزنطية استطاعت تجسيد الاحتلال على المناطق التي سيطرت عليها لمدة طويلة من الزمن، يرجع ذلك لمجموعة من العوامل المساعدة ، في مقدمتها العامل الاقتصادي وطريقة استنزاف خيرات بلاد المغرب وكثرة الضرائب ، و العامل الجغرافي الذي لعب الدور الكبير في إحكام السيطرة على المنطقة من خلال السيطرة على المناطق الإستراتيجية وبناء منشأت عسكرية قادرة على التَصدي للثورات المورية التي لم تتوقف طيلة فترة الاحتلال، كما كان للعامل الديني الدَور الكبير في ذلك من خلال جهود الإمبراطور جوستينيان في نشر المسيحية والثقافة اللاتينية بين أوساط مجتمع المغرب القديم الذي بقي رغم ذلك بقي يحافظ على مقوماته وثقافته طيلة فترة الاحتلال البيزنطي للمنطقة وإلى الفتح الإسلامي.